الأب بيير جورجو جانتسا

الله الآب الرحيم

تأمّل في لوحة رمبراندت "الابن الضالّ"

سلسلة
بناة الإيمان
القدس

سلسلة "باب الإيمان"

الحياة الروحية

١) صلوات العائلة المسيحية
٢) في رحاب الله
٣) حبّك نارٌ آكلة...
٤) الفرح الكامل: التكريس الرهباني طريقٌ للفرح
٥) كلامك، يا ربّ، روح وحياة: أصداء الكلمة
٦) رياضة روحية (١) : المبدأ والأساس
٧) رياضة روحية (٢) : المرض والشفاء
٨) رياضة روحية (٣) : الخطيئة والغُفران
٩) رياضة روحية (٤) : سر التجسُّد – زمن المجيء والميلاد
١٠) رياضة روحية (٥) : دعوة لإتباع يسوع
١١) رياضة روحية (٦) : حبٌّ حتى الموت – آلام وموت يسوع
١٢) رياضة روحية (٧) : "لقد قام" – الحياة أقوى من الموت
١٣) البراءة البابوية "وجه الرحمة"
١٤) الرحمة الإلهية: من الله الرحيم إلى البشر الرحماء
١٥) تأملات في الرحمة
١٦) تأمل في لوحة رمبراندت "الابن الضالّ"
١٧) لوحة "الابن الضالّ"

منشورات مكتبة يسوع الملك
بيت ساحور

مطبعة البطريركية اللاتينية – القدس
بيت جالا – تشرين الثاني ٢٠١٥

مدخـل

كان الإنجيل، في كلّ زمان ومكان، منبع إلهام للكُتّاب والشعراء والروائيين والرسّامين والمُخرجين والمسرحيين والنحّاتين وغيرهم. ولم يكن هؤلاء مجرّد مصوّرين محايدين لما ورد في الإنجيل، بل كانت الصفحات الإنجيلية مرآة رأوا فيها أنفسهم كما رأوا صورة الإنسان وسط أمواج الحياة وتقلّباتها. وفي كلّ مرّة، يكتشفون في النصّ جوانب خفيّة على القارئ العاديّ، تساعده على الدخول في أعماق هذه اللوحات الإنجيلية الخالدة. وهذا ما يحملنا على القول إنّ كلّ هذه المُنتجَات الفنيّة هي "إنجيل خامس"، لا بمعنى أنّها تحل محل الأناجيل الأربعة، بل بمعنى أنّها تنهل من غنى هذا الكنز، وتستخرج منه "جُددًا وعُتقا"، في ضوء خبرات الفنان الروحية والإنسانية والاجتماعية، فتنجلي لنا المعاني اللامتناهية للنص الإنجيلي.

إن لوحة "الابن الضال"، للرسام الهولندي رمبرندت، واحدة من هذه اللوحات، التي لا تتركك محايدا. في سنة يوبيل الرحمة، نقدّم لقرّائنا هذا التأمّل الذي يتحفنا به الأب بيير جورجو جانتسا حول هذه اللوحة الخالدة. ونرجو لمن يتابع

هذا التأمّل، وينتقل بين ما يقرأ وما يرى، أن تولد فيه الرغبة في ان يقوم هو نفسه أيضا بمسيرة رحمة برفقة هذه اللوحة، في عالم اصبحت القسوة إحدى سماته، فيكون بدوره أيقونة رحمة في بيئته ومجتمعه.

الناشر

من إنجيل لوقا (١٥: ١-٣؛ ١١-٣٢)

"كان الجباة والخاطئون يدنون منه جميعا ليستمعوا إليه. كان الفريسيون والكتبة يتذمرون فيقولون: "هذا الرجل يستقبل الخاطئين ويأكل معهم!". فضرب لهم يسوع هذا المثل قال....:

كان لرجل ابنان. فقال أصغرهما لأبيه:

- يا أبت أعطني النصيب الذي يعود علي من المال. فقسم ماله بينهما . وبعد بضعة أيام جمع الابن الأصغر كلّ شيء له، وسافر إلى بلد بعيد ، فبدّد ماله هناك في عيشة إسراف.

فلما أنفق كلّ شيء ، أصابت ذلك البلد مجاعة شديدة، فأخذ يشكو العوز.ثم ذهب فالتحق برجل من أهل ذلك البلد ، فأرسله إلى حقوله يرعى الخنازير.

وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله ، فلا يعطيه أحد . فرجع إلى نفسه وقال:

- كم أجير لأبي يفضل عنه الخبز وأنا أهلك هنا جوعا !

أقوم وأمضي إلى أبي فأقول له:

- يا أبت إني خطئت إلى السماء وإليك. ولست أهلا بعد ذلك لأن أدعى لك ابنا ، فاجعلني كأحد أجرائك.

فقام ومضى إلى أبيه.

وكان لم يزل بعيدا إذ رآه أبوه، فتحرّكت أحشاؤه، وأسرع فألقى بنفسه على عنقه وقبّله طويلا.

فقال له الابن:

– يا أبت، إني خطئت إلى السماء وإليك، ولست أهلا بعد ذلك لأن أدعى لك ابنا.

فقال الأب لخدمه:

– أسرعوا فأتوا بأفخر حلّة وألبسوه، واجعلوا في إصبعه خاتمًا وفي قدميه حذاء، وأتوا بالعجل المسمَّن واذبحوه فنأكل ونتنعم، لأنّ ابني هذا كان ميتا فعاش، وكان ضالًّا فَوُجِد.

فأخذوا يتنعمون. وكان ابنه الأكبر في الحقل، فلما رجع واقترب من الدار، سمع غناء ورقصا. فدعا أحد الخدم واستخبر ما عسى أن يكون ذلك. فقال له:

– قدم أخوك فذبح أبوك العجل المسمَّن لأنّه لقيه سالمًا.

فغضب وأبى أن يدخل.

فخرج إليه أبوه يسأله أن يدخل، فأجاب أباه:

– ها إنّي أخدمك منذ سنين طوال، وما عصيت لك أمرا قطّ،

فما أعطيتني جديا واحدا لأتنعّم به مع أصدقائي. ولمّا قدم ابنك هذا الذي أكل مالك مع البغايا، ذبحت له العجل المسمّن! فقال له:

– يا بنيّ، أنت معي دائما أبدا، وجميع ما هو لي فهو لك.

ولكن قد وجب أن نتنعّم ونفرح،

لأنّ أخاك هذا كان ميتا فعاش، وكان ضالًّا فوجد".

مقدمة

لِنَعُد معًا إلى بيت الآب!

لِنلْقِ نظرة أولى إلى لوحة "الابن الضالّ" الماثلة على غلافِ هذا الكتيّب! في هذا الأب وهذا الابن نرى بسهولة المشهد الأساسي من مثل الابن الضال، الذي رواه لنا يسوع. إنّه الأب الذي يعانق الابن الأصغر الذي عاد إلى البيت. ونلاحظ أيضا الأشخاص الأربعة الباقين: الابن الأكبر، ورجلا جالسا متفرجا، وامرأتين واقفتين في الظلّ وهما أقلّ وضوحا من الأشخاص الباقين. والآن أدعوك إلى أن تقرأ من جديد نصّ المثل كاملا، كما ورد في إنجيل القديس لوقا (١٥: ١-٣؛ ١١-٣٢)، والذي تجده في بداية هذا التأمّل. وها إنّني أقرأه أنا أيضا بتأنٍّ، محاولًا أن أدخل في عمق النصّ وفي كلمات الأشخاص وجملهم وحركاتهم ومواقفهم. وإنّني أتصور أيضا الأمكنة والمشاهد. وبعدها أنظر من جديد إلى اللوحة متوقّفا عند بعض تفاصيلها. يريد الرسّام، قبل كلّ شيء، أن يعبّر عن خبرته الداخلية الخاصّة، ولكنّه يريد أيضا أن ينقل إلينا رسالة ما. في هذه القراءة، أودّ أن أكون رفيق دربك أكثر مني دليلك. معًا،

لنجعلْ هذا النور المنبعث من وجه الأب ينير أيضا نظرتنا. كما نطلب من الله، "أبي الأنوار" (يعقوب ١: ١٧)، أن يمنحنا عيونا صافية لنتمكّن من الارتفاع إلى مستواه. عندها يتمّ فرحنا: "طوبى لأطهار القلوب، فإنّهم يشاهدون الله" (متى ٥: ٨). معًا، لنعُد إلى بيت الآب لنستسلم بين ذراعي حبّه.

قصّة لوحة شهيرة

إذا ذهبت إلى متحف الايرميتاج (الصومعة) في سان بيترسبورغ في روسيا، فإنّك سوف تشاهد كلّ يوم طابورا طويلا من الزوّار، الذين ينتظرون دورهم للدخول. لقد جاؤوا كي يتمتعوا بمشاهدة اللوحة المرسومة بالزيت للرسّام الهولندي الشهير، رمبراندت (١٦٠٦–١٦٦٩) والمعروفة باسم "عودة الابن الضالّ". يلفت نظرك أولا ضخامة مقاييسها: ٨٤، ٢٤٣ سم طولا و٨٨، ١٨٢ سم عرضًا. غير أنّ جمالها الحقيقي يكمن في تعابير أشخاص المشهد. والشكلان اللذان يستَحوذان على الفور على انتباهك هما شكلا الأب والابن الأصغر، اللذان يشكّلان وحدة واحدة في عناقهما، واللذان يشكّلان بدون أي شكّ بؤرة المشهد المركزية. ومن ثمّ يمتد النظر إلى الأشخاص المحيطين بهما: الأخ الأكبر الواقف منتصبًا على قدميه، ورجل جالس يتأمّل المشهد تأمّلا مليّا، وامرأة واقفة تتأمّل مبتسمة فرح اللحظة، وامرأة أخرى في الخلف وكأنّها تختبئ في الظلمة. إنّ اللعبة الكثيفة من النور والظلّ، والمفارقة بين الأحمر والأسود في تدرّجها المتفاوت، ترشد نظر المشاهد كي يعود دوما الى المركز. وهذا المركز

اللامرئي والخفيّ، ولكنّه يملأ المكان، هو قلب الأب، الذي منه ينبثق كلّ شيء ويصل كلّ شيء.

لقد رسم رمبراندت هذه اللوحة في نهاية حياته. ومن المحتمل أن تكون إحدى لوحاته الأخيرة قبل أن وافته المنية في امستردام عام ١٦٦٩. وعندما نعرف حياته المضطربة، ليس من الصعب أن نرى في هذه اللوحة تعبيرا عن عودته هو الى البيت الحقيقي، بيت الآب. لقد وُلد هذا الرسّام في لايدن (هولندا) عام ١٦٠٦، من عائلة مسيحية بروتستنتية، وكانت له علاقة، منذ صباه، بمعلمي الرسم في مسقط رأسه. وقد تميّز منذ البداية بعبقريته الفنيّة، خصوصا في مجال رسم الأشخاص والمشاهد المأخوذة من الكتاب المقدّس.

عرف هذا الرسّام، في أيام شبابه، الشهرة والمال، ولكن حياته كانت متكبرة ومتعجرفة ومنحلة. فكان طمّاعا في الكسب وتعاطي الخمور، كما كان يبحث عن الإطراء والمديح، وكان سريع الغضب. إنّ بعض رسوماته الأولى تبينه شابا متسكعا أسلم نفسه للملذات والفسق. وهذا ما يؤهّله لرسم نفسه كالابن الأصغر الذي "جمع كلّ شيء له، وسافر إلى بلد بعيد، فبدّد ماله هناك في عيشة إسراف" (لوقا ١٥: ١٣). ولكنّه، مع مرور الأيام، هو أيضا وجد نفسه "يشكو العوز" (١٥: ١٤): مصائب وأكدار عائلية، آلام، انفصالات وموت

أحباب، مشاكل مالية وديون، وحدة وهجران. بعد أن تزوّج زواجا شرعيّا، عرف، بعد موت زوجته، مغامرات عاطفية ومساكنات غير شرعيّة. إنّ البكاء والألم وعدم الاستقرار والندم تقود خطواته من جديد الى البيت الذي ظلّ مفتوحا، والى الذراعين الممدودتين، الى النور الذي لم ينطفئ قطّ، الى القلب الذي ما توقّف قطّ عن الحبّ. على عتبة الموت، لم يكن له أي شيء، لقد فقَد كلّ شيء ولكنّه، في الوقت عينه، وجد كلّ شيء. لقد وجد إلهه، أباه العزيز والمحبوب. يبدو وكأنه، في هذه اللوحة الشهيرة، قد رسم خبرته الشخصية، اي عودة رمبراندت التائب إلى بيت الآب ومعانقة الأب الرحيم له.

تظل اللوحة شاهدة على خبرته الحياتية وتقودنا إليها. ولقد حصلت كاترينا الكبيرة، امبراطورة روسيا، على هذه اللوحة سنة ١٧٧٦، وعرضتها في متحف سانت بيترسبورغ (المدعوّ الصومعة) حيث لا تزال محفوظة إلى اليوم ومعروضة للزوّار. غير أنّ اللوحة طافت العالم، ونجد نسخا لها في الكنائس والقاعات المسكونية والبيوت وفي المجموعات الخاصّة. عرفت لوحة ريمبرندت "عودة الابن الضالّ" نجاحا يتحدّى الزمن ، حيث كثيرا ما نجدها في المجلات ،وتُعاد طباعتها والتعليق عليها في النشرات، وتعرض في الكنائس، وتستعمل في الرياضات الروحية. وليس بالغريب أن تكون موضع دراسات، وأيضا

اطروحات دكتوراة ليس فقط في المجال الفني بل في المجال اللاهوتي أيضا. ولقد كُتبت حول هذه اللوحة الشهيرة ايضا كتب كثيرة تمتاز بالتعليق الروحي العميق، مما يجعلها تقوم برسالة أيقونة حقيقية تقود الى السماء. وهذا الكتيّب، الذي ينشر لمناسبة سنة الرحمة (٢٠١٥/٢٠١٦)، التي أعلنها البابا فرنسيس، سوف يساعد القارئ على الدخول في قلب الله الرحيم، بما نستوحيه من المشهد الإنجيلي، من جهة، والوارد في إنجيل لوقا، ومن هذه اللوحة التي رسمتها ريشة الفنان رمبراندت، من جهة أخرى.

الأشخاص وتفاصيل ملامحهم

الابن الأصغر

إنّ صورته تعطي الاسم للوحة بأكملها. فالنقّاد الفنيّون يطلقون عليها اسم **عودة الابن الضال**. وهو راكع أمام والده ويلقي برأسه على صدره. إنّه يسكب في قلب الأب كلّ ندامته وتوبته وتعبه من الحياة، ويجد فيه السلام والأمان والترحاب والعفو والحبّ. إنّ منظره الخارجي يشبه منظر العبد او المُستعطي: ثياب ممزّقة تقريبا ومغبرّة، وحذاء تالف، وزنّار مصطنع، وكيس نقود فارغ. ما يرى من جسده الرأس والرجلان. أمّا الرأس فعارٍ ومحلوق، وكأنّه امرؤ فقد عزّة نفسه واستقلاليته. ونعرف، من تاريخ الحضارات الإنسانية، أنّ الرأس المحلوق مؤشر على وضع السجن والخضوع والذلّ. وبكلمة، يشير إلى فقدان الحريّة. أمّا القَدم اليسرى، فإنّها خرجت من الحذاء وتغطيها الجراح. والقدم اليمنى مُغطاة جزئيا بحذاء مهترئ ومثقوب. والرداء مُستهلك وممزّق. ولونه الأصفر الكستنائي يختلف تماما عن الأحمر الفاتح وهو لون المعطف الذي يرتديه الأب الذي يستقبله وكذلك عن المعطف الأحمر الذي يرتديه أخوه الأكبر الذي يقف منتصبا بجانبه.

وبالاختصار، فإنّ هذا المظهر الخارجي يشير إلى الفقر والبؤس والحرمان والوحدة والخيبة والفشل.

لقد احتفظ فقط بالسيف الصغير الذي يتدلى على جنبه والذي لم تمتد إليه يد أحد، وهو يذكّر بشرفه الأثيل. غير أنّ كرامة الابن التي لم يفقدها أبدًا تظهر بشكل خاصّ في ملامح الوجه: فالأعين المغلقة تشير الى الألم والحاجة الى الحنان، والفم الصامت يعبّر عن اعتراف قلبه الصادق. أمّا اليدان والرأس فإنّها تستند إلى صدر أبية، وكأنها حركة تعود بالابن الى وضعه عند الولادة، إلى حضن الأهل الدافئ. إنّ الركوع يبيّن الخضوع البنويّ والثقة الكاملة التي يرافقها الاعتراف بخيانته وعدم استحقاقه.

إنّه ابن كان يملك كلّ شيء، ومن ثم فقد كلّ شيء، وهو الآن يسترجع كلّ شيء. أراد أن يختبر حرّيته ويمارس سلطته واستقلاليته. قرّر أن يبني لنفسه حياة وحده، بعيدا عن أبيه، وعائلته، وبيته، وبيئته الإنسانية. استند فقط على سلطة المال الوهمية وعلى الصداقات المزيّفة. وها هو الآن انسان مذلول، مكسور، مسحوق، ضعيف، جائع، وحيد. لقد فقد أحسن وأثمن ما عنده: الصحّة، السمعة الحسنة، الشرف، الثقة بالنفس، شجاعة الكفاح والمواجهة، الصداقة، السلام الداخلي، كرامة الابن، البيت العائلي. ولكنّه يشعر أنّه لا يزال

يمتلك الخير الأعظم، الذي يشمل سائر الخيرات كلّها: اباه. إنّ حبّه له يتحرك في داخله ويدفعه إلى القول: "أقوم وأمضي الى أبي فأقول له: يا أبت إني خطئت الى السماء واليك، ولست أهلا بعد ذلك لأن أُدعَى لك ابنا، فاجعلني كأحد أجرائك". وها نحن نراه يتخذ القرار على الفور وينفذه: "فقام ومضى إلى أبيه" (لوقا ١٥: ١٨–٢٠).

إنّ طريق العودة تبدأ من بعيد: من وعيه لخطيئته. ولكنّها تبدأ ايضا من قريب: من عمق قلبه. إنّ صوت الأب لا يزال يرنّ في وجدانه ويسمعه من جديد وكأنّه يعيد على مسامعه هذه الكلمات: "أنت ابني وأنا اليوم ولدتك" (مزمور ٢: ٧). "عندئذ رجع إلى نفسه" (لوقا ١٥: ١٧). إنّ هذه الحركة الداخلية للذهن والقلب أساسية. إنّها صحوته لحالته الحقيقية، التي تحمله على التفكير: "مَنْ أنا اليوم؟ ماذا اصبحتُ؟ لماذا انتهى بي الأمر إلى هذه الحالة؟ هل أبقى هكذا في تعاستي ووحدتي ويأسي، أم أريد أن أغيّر حياتي؟ نعم، هذا ما أريده. ولكن مَنْ يمنحني قوة استعادة نفسي وشجاعة الرجوع؟ لقد خنت والدي وعائلتي. ماذا يمكن أن انتظر منهم، بعد أن أهنتهم واسأت إلى صيتهم أمام الناس؟ وتأتيه فكرة، لا بل يقين، ينيره ويفيض فيه الأمل: لا يزال أبي يحبني واليوم أريد أن أعود اليه. ولكنّ السفر طويل وتتوالى الشكوك والتجارب: "ماذا اقول

له؟ كيف سيستقبلني؟ هل سأكون جديرا به؟ وأخي وأمي، كيف ستكون ردود فعلهم؟ إنّني تعس مسكين ولا استحق أن أكون واحدا من العائلة، لا استحق أن أكون ابنا. ومن العدل أن أعاقب. أقْبَلُ أن أكون أجيرا في خدمة البيت" (راجع لوقا ١٥: ١٨–١٩) "فقام ومضى إلى أبيه" (لوقا ١٥: ٢٠). لهذين الفعلين (قام ومضى) أهمية قصوى، لأنّ الابن لا يقرّر العودة بالكلام فقط، بل يضع قراره موضع التنفيذ. قال، فعل! ينتقل من القول إلى الفعل. وهكذا فإنه "يعبر البحر"، من العبودية إلى الحرية. ويصل أخيرا الى البيت. ولا يستطيع أالبدء بالسيناريو الذي تخيّله، لأنّ الأب سبقه بحبّه المبادر، وذهب إليه مسرعا.

عند هذا الحدّ من تأمّلنا في لوحة رومبراندت الشهيرة، وبعد ذكرنا لجميع ما فكّر به الابن الضالّ العائد وقام به من خطوات عمليّة، أعتقد أنّنا لا نخرج عن الموضوع إذا قمنا بمقارنة بين تصرّف الابن الضالّ وسرّ المصالحة أو التوبة، لما في ذلك من فائدة شخصيّة. ما نلاحظه هو أنّ الخطوات التي يقوم بها الابن الضالّ لكي ينتقل من حالة التعاسة إلى حالة السعادة الجديدة، هي نفس الخطوات التي تطلبها الكنيسة من المؤمن كي تكون عودته إلى بيت الآب حقيقيّة وصادقة. ما هي الخطوات التي يقوم بها الابن البعيد كي يُدمَج من جديد في بيت الآب وينعم بجميع خيرات العائلة؟

إنّ الخطوة الأولى هي العودة إلى نفسه ووعي سوء الحال الذي وصل إليه: "عاد إلى نفسه" (لوقا ١٥: ١٧). يعقب ذلك الاعتراف بالخطأ، لا بل بالخطيئة، التي يسميها باسمها، بغير معاذير أو مبرّرات: "يا أبتِ، إنّي خطئت إلى السماء وإليك" (لوقا ١٥: ١٨، وهذه هي الخطوة الثانية). إنّ هذا الاعتراف بالخطيئة يرتبط بالندم على ما اقترفه من شر، وهذا ما يقوده إلى التوبة الصادقة (الخطوة الثالثة). عندها، يجد نفسه جاهزًا للقيام بالخطوة الرابعة، وهي القبول بأيّ مكان في البيت العائلي، ولو كان مجرّد أجير، لاعتقاده أنّه لا يستحق أن يُدعى ابنًا (راجع لوقا ١٥: ١٩). إنّه يعتقد ذلك، لأنّه يضع العدالة فوق الرحمة والغفران. ولكنّ الأب يذهب إلى ما هو أبعد من العدالة: إنّه يغفر كلّ شيء، ولا يعيد له كلّ شيء فحسب، بل يعطيه بوفرة وبغير حساب (الخطوة الخامسة). وفي كلّ هذا، الأب الأرضي هو صورة للآب السماوي، الذي يعتبر، كما يقول القديس يعقوب ، أنّ الرحمة فوق الدينونة (راجع يعقوب ٢: ١٣). وأخيرًا، لا يمكننا إلا أن نفكّر أنّ الابن، بعد عودته، بقي دائم الأمانة على هذه النعمة التي قبلها من أبيه (الخطوة السادسة).

وهذه هي بالذات الخطوات التي تطلبها الكنيسة من المؤمن الذي يتوب ويعود إلى الله وإلى الجماعة وإلى الآخرين. وهذا ما يذكّرنا به تعليم الكنيسة الكاثوليكية (راجع البنود ١٤٥٠–

١٤٧٠)، اي أنّ الخاطئ التائب يجب عليه، لكي يحظى بمغفرة الخطايا، أن يقوم، قبل كلّ شيء، بفحص ضميره وتبيّن حالة نفسه بصدق. ومن ثمّ، فهو مدعوّ إلى الندامة عن خطاياه، وأن يعترف بذلك لله وللكنيسة (الاعتراف)، ليقوم في ما بعد بعمل كفّارة أو تعويض، وأخيرا أن يعزم على الالتزام بالحياة الجديدة. والله، من جانبه، يمنح غفرانه بسخاء، لأنّه "الواسع الرحمة ، للحبّ الشديد الذي أحبّنا به" (أفسس ٢: ٤). ولهذا، فإنّ الكنيسة تردّد دائما ما يقوله القديس بولس: "نسألكم باسم المسيح أن تَدعوا الله يصالحكم" (٢ قورنتس ٥: ٢٠).

الأب

في لوحة رمبراندت، رُسم الأب على شكل عجوز نصف أعمى، بلحية وشاربين، وسترة طويلة مطرَّزة بالذهب ومعطف أحمر غامق. إنّه متّحد بالابن والابن متّحد به. ولا يمكن فصلهما: يستند الابن الى الأب والأب يسند الابن. وفي سكونه يضفي حركة على المشهد بأكمله. وبعينيه المغمضتين يلقي ضوءا على جميع الأشخاص. وبذراعيه الممدودتين ويديه المعانقتين يكسب الجميع بحبّه. وعلى الرغم من سنه المتقدمة، فإنّه يفيض حياة جديدة لمن هو على وشك الموت من العوز. كلّ شيء ينطلق منه وكلّ شيء يتوجه اليه والنور المنبثق من

وجهه يضيء وجوه الشخوص الآخرين بنسب متفاوتة.

إنّ هذا النور حيّ وساطع خاصّة في يديه اللتين تصبحان مصدرا للنور والحرارة. وجسد الابن الراكع بمجمله، وبشكل خاص صدره، مكان القلب، يغمره وينفذ اليه النور المنبثق من اليدين. إنّهما يدان من نار تحرقان كلّ شر وتفيضان حياة جديدة. إنّهما يدان تلمسان وتشفيان وتعطيان الأمل والثقة والتعزية. إنّ هذه الأيدي تسترعي انتباه وإعجاب جميع مشاهدي لوحة رمبراندت. إنّ زوّار اللوحة الاصلية ومعجبي نسخها م يركّزون انتباههم عليها، لما تمتاز به حقا من خصوصية خارجة عن المعتاد. إنّهما يدان متشابهتان ومختلفتان. اليد اليسرى قويّة وأصابعها مفتوحة وتغطّي جزءًا كبيرا من الكتف الايمن للابن الضال. إنّها يد تضمّ وتسند. ولها خطوط أو ملامح تتميّز بها يد رجل. أمّا اليد اليمنى، فإنّها بالاحرى رقيقة وناعمة وحنونة جدا. وأصابعها متقاربة وتبدو أنيقة وتمتدّ بحنان على الكتف. انها تلمس وتحمي وتعزّي وتشعّ الهدوء. إنّها يد أم. يدان مختلفتان لحبّ واحد: إنّه حبّ الأب والأم في الوقت عينه.

كلّ شيء في الأب ينطق بالحبّ: الوجه المستغرق في التفكير، والثياب التي تحمي، والجسد الذي يستقبل، والايدي التي تعانق وتبارك. إاّ جسده يتحوّل إلى خيمة تستقبل ويداه

تضمّان وتلامسان الابن الذي عاد. وهذا الحبّ فيه كلّ الأنغام والتعابير: غنّه استقبال، غفران، بكاء، حنان، عطاء، مشاركة، بركة، امنية، فرح، عيد، حياة، ميراث. إنّ سخاءه يضع جميع الحاضرين في حالة ذهول، يعبّر كلّ واحد منهم عنها بردّة فعل خاصة، ولكنّ الجميع يعكسون حالة من الذهول. إنّ المعطف الأحمر الواسع يلفّ الابن: إنّه كالبيت المضياف، إنّه كالخيمة التي تدعو الى الراحة والى المائدة. وأكثر من أي شيء آخر، فإنّه يشبه جناحي النسر او جناحي دجاجة حيث يجد الصغير الملجأ والقوة والأمان. إنّ اللون الأحمر للمعطف يشير إلى الحبّ اللامتناهي، الحبّ المشتعل الذي يستهلك كلّ شيء كالنار. واللون الأحمر يطغى على كل الألوان، لأنّ الرحمة تتغلّب على الخطيئة وتمنح الغفران. إنّ الأب المتقدم في السن ينزل نحو الابن، جاعلا ذاته وحدة واحدة معه. ويستقبله على مرتفع صغير قد يكون منصّة صغيرة أو درجة البيت وهي في كلّ الأحوال رمز للكرامة والشرف المسترجعين وعظمة الوضع البنوي.

إنّ صورة الأب مركزية إلى حدّ أنّ اللوحة يمكن تسميتها ايضا "**استقبال الأب الرحيم**". وبعضهم يدعو المثل بمثل هذه التعابير: الاب السخيّ، السخيّ بعطاياه. إنّ الرسم لا يبرز جميع العطايا الأخرى بشكل واضح: أحسن الثياب، الخاتم،

الحذاء، العجل الـُمسمّن، المائدة الفاخرة، الجوقة الموسيقية. ولكنّ الرسّام وضع كلّ هذا في قلب الأب، ينبوع كلّ خير. والانجيل نفسه يضع في مركز المثل وقمّة القصّة في موقف الاب: وكان لم يزل بعيدا إذ رآه أبوه، فتحرّكت أحشاؤه وأسرع فألقى بنفسه على عنقه وقبّله طويلا" (لوقا ١٥: ٢٠). لنحاول تحليل النصّ تحليلا تفصيليا. إنّ الأفعال الخمسة المستعملة هي كلّها أفعال حركة فعّالة. إنّها ليست مجرّد أفكار وأحكام وكلمات فارغة! بل إنها تعبّر كلّها عن لفتات واقعية، ومؤثرة، وودودة، تنبثق كلّها من حبّ كبير. فالفعل الأول له دلالته العميقة: "وكان لم يزل بعيدا إذ رآه ابوه". عندما يكون المرء بعيدا، من الصعب أن نميّز من هو، خصوصا عندما يضعف البصر، كما هو الحال بالنسبة إلى الأب الذي تقدّم في السن. ولكنّ الحبّ يشحذ البصر، كما يشعل القلب نورا، ويجعلنا نتعرّف على الشخص من بعيد: "نعم، إنّه هو، إنه ابني!". وها هو، بدل أن ينتظر بقلق وفرح، لا يسير فحسب، بل يركض، ويركض، ويركض، من غير أن يتعب، إلى أن يلتقيه. إنّه هو من يسبق ابنه، ويلقي بنفسه على عنقه، وهو الذي يقبّله أولا... وهذا ما لم يكن الابن ليجرؤ عليه، لأنّه يعرف أنه خيّب آمال أبيه وخانه، وكان يعرف أنّه لا يستحقّ شيئا.

وهنا نصل إلى الفعل الذي يحرّك سائر الأفعال ويجعل

من المشهد سلسلة من الأعمال والحركات. وهذا الفعل الأساسي هو "تحرّكت أحشاؤه"، أي أنّه تحرّك في صميم قلبه. ما لم يتحرّك القلب، فلا شيء يتحرّك. إذا بقي الداخل ناشفا ، جافا، منسدّا، بغير شعور، فالخارج لن يتحرّك. وإذا تحرّك الخارج بدون دفعة من الداخل، فإنّ هذه الحركة ستكون مزيفة، كاذبة، مرائية. وهنا، تتحرّك أحشاء الأب، يتحرّك شيء في داخله، يشعر أنّه واحد مع ابنه، كما في لحظة حمله. عندئذ، كلّ الحركات تصبح حركات حبّ، كما تشير إلى ذلك كل الأفعال العملية اللاحقة.

الابن الأكبر

إنّ الرجل الذي يقف منتصبا على يمين الدرجة في اللوحة هو الابن الأكبر. هنالك مسافة بينه وبين الأب الذي يعانق الابن الأصغر. ونتبيّن أنّ هذه المسافة ليست فقط مسافة ماديّة، بل ايضا انفصالا وجدانيّا، وابتعادا عن موقف الأب ونفورا حيال الابن المتمرّد. ويقف مستغربا وهو يشاهد مشهد الحفاوة. نظرته تنمّ عن لغز، بين القسوة وعدم التصديق، بين الضائع والمتردِّد. إنّه ينظر الى الأب، لكنه لا يعبّر عن الفرح او الموافقة. غنّه يقف من غير أن يشعر نفسه بأنّه معني بما يجري. إنّه يريد أن يدين، ولكنّه يشعر، بشكل من الاشكال، انّه هو أيضا مُدان. يبدو

وكأنه انسان حانق، ناقم، مُهان، ولكنّ ملامحه تدلّ أيضا على أنّه يفكر. يسأل، ولكنّه يشعر أنّه هو ايضا موضع تساؤل. و لمَ لا نقرأ أيضا في عينيه بعض التساؤلات التي تتردّد في قلبه؟ كهذه التساؤلات: "ها إنّ الابن المتمرّد قد عاد، ولكن لماذا يستقبله أبي بهذا الشكل؟ ومَنْ أنا الذي كنت دائما أمينا؟ ومَنْ عرف كيف يحبّ أباه، هو أم أنا؟ هو وحده ترك البيت؟ هل أنا أيضا تركت البيت؟ "ولكنّ أصوات الكبرياء والشرف ترتفع في داخله وتطغيان على غيرهما من المشاعر: ألست أنا الابن الأكبر؟ ألم أكن دائما أمينا على ابي اذ خدمته في كلّ شيء؟ فلماذا يوجه لي هذه الإهانة إذ يفضّل علي هذا الابن المنحلّ؟".

يا لها من أفكار حزينة! إنّها تدلّ على أنّ الابن الأكبر لم يقم بعد بالخطوة التي قام بها أخوه، الذ "عاد إلى نفسه" (لوقا ١٥: ٣٩)، والتي كانت الخطوة الأولى نحو عودته إلى أبيه. أمّا هو، فلا يرجع إلى نفسه، لا يفكّر فيما إذا كانت هذه الأفكار تتطابق مع مشاعر الله، الذي هو رحمة وغفران. وبدل الرجوع إلى نفسه، لكي يخرج فيما بعد من ذاته ومن أنانيته ومن أحكامه الخاصة ومن كبريائه، فإنّه ينغلق أكثر فأكثر على ذاته، ولا يرى غير ذاته، وكانّه يقول: "كلّ الآخرين مخطئون، وأنا وحدي أعمل الخير!".

ومع ذلك فإنّ نظرة سريعة ترينا أنّ هذا الابن الأكبر يشبه

الأب أكثر مما يشبه الابن الأصغر. شأنه شأن أبيه، يقف على رجليه، له لحية، يلبس معطفا أحمر واسعا على كتفيه، وتغطّي رأسه عمامة جميلة، ووجهه مضيء. ولكن، من ناحية أخرى، فإنّ نظرة أكثر عمقا تبيّن الى أي حدّ يختلف عن الأب: الأب منحن، وهو منتصب بكبرياء. عينا الأب مغمضتان، وعينا الابن مفتوحتان. ولكنّ الأوّل هو الذي يرى جيدا، بينما الثاني "فإنّه ينظر ولا يبصر" (متى ١٣: ١٣). إنّ معطف الوالد واسع ومُرحّب، أمّا معطف الابن فهو جامد ويلتصق بالجسد وكأنّه مُلك أناني. إنّ يدي الأب العجوز مفتوحتان وتستندان على كتفي الابن الذي كان ضائعا فوجد، أمّا يدا الابن الذي بقي في البيت فهما مغلقتان وكأنهما مقيدتان ، وتستندان إلى صدره بينما تحملان عصا (عصا السفر؟ العمل؟ الأمر؟). إنّ ضوء وجه الابن الأكبر يظلّ محصورًا ولا يشعّ حوله، بينما ينعكس ضوء وجه الأب على الابن ويفيض فيه الضوء والحرارة.

يرى كثيرون من نقّاد الفنّ في صورة الابن الأكبر موقف الكتبة والفريسيين من يسوع. فهم، كما تقول المقدّمة لـمَثل الابن الضال، لا يوافقون على تصرّف يسوع، لا بل ينتقدونه، فكانوا "يتذمرون فيقولون: هذا الرجل يستقبل الخاطئين ويأكل معهم!". فهم يعتقدون أنّهم الصالحون والأمناء على

تعليم الشريعة، والذين لم يبتعدوا عن البيت الأبوي، والذين يخدمونه ويعملون بوصاياه. وبما أنّهم يشعرون أنّهم أطهار، صالحون، ومستقيمون، فهم يجب ألا يقتربوا من هؤلاء الأنجاس خوفا من العدوى.

إنّ جميع هذه الاعتبارات يمكن أن تقودنا الى اعطاء عنوان ثالث للوحة ريمبراندت، بالاضافة الى العنوانين الآنفين، **الا وهو "مثل الابنين الضالين"**. مع هذه المواقف من الضغينة والبغضاء، كان الابن الأكبر أيضا ضائعًا. إنّ المثل الذي يرويه لنا يسوع يخبرنا أنّ الابن الأصغر عاد، ولكنّه لا يقول شيئا عن المخرج النهائي للابن الأكبر. هل اقتنع بكلمات أبيه اللطيفة؟ هل تأثّر مما قاله له أبوه: "يا بني، أنت معي دائما أبدا، وجميع ما هو لي هو لك" (لوقا ١٥: ٣١)؟ هل قبل الدعوة الى الدخول في البيت والمشاركة مع غيره بالعيد؟ إنّ المثل لا يقول شيئا حول جميع هذه التفاصيل، لأن هدفه أن يبرز حبّ الآب الرحيم تجاه الخاطئين، الذي يجسده ويعيشه يسوع، ابن الآب. إنّه مَثَل مفتوح بدون خاتمة بيّنة. والرسام الهولندي هو ايضا يترك الباب مفتوحًا. إنّ كلّ مستمع للمثل وكلّ مُشاهد للّوحة مدعوٌّ إلى أن يشعر أنّه معنيّ، فيندمج في أحد الأشخاص ويعطي جوابه.

الشخوص الآخرون

إنّ الشخوص الأخرين في اللوحة شخوص ثانوية، ولكنّها تكمّل اللّوحة. إنّها تشير إلى ردود فعل شخصية لما يحدث أمامهم، والتي تتراوح بين المشاركة بمختلف الدرجات والنقد وعدم الاكتراث. في الواجهة، يظهر رجل جالس، وفي الخلف، شخصيتان نسائيتان، الواحدة في الوسط بطيفها الخافت في الظلّ، والأخرى في الزاوية الشمالية من فوق، وتكاد لا يلاحظها أحد وقد غرقت في نصف العتمة. نركّز نظرنا، قبل كلّ شيء، على الرجل الجالس بجانب الأخ الأكبر، بقدميه المتشابكتين ويده على صدره. إنّه حسن الهندام، ووجهه مشع اشعاعا خفيفا، وعيناه مفتوحتان وفمه مغلق. إنّه لا ينظر مباشرة الى مشهد المعانقة، ولكنّه يحدّق في الفراغ. إنّه يفكّر، ويحلم، وينتقد، ويوافق، وتبدو عليه أمارات التردّد ويتساءل كثيرا. ولكنّه، في آخر الأمر، يبدو أنّه حزم أمره، فيوافق على المشهد. لقد اقتنع أنّه هو ايضا، الخاطئ المسكين، يستطيع أن يحظى بعناق الأب الرحيم، إذا عرف كيف يعود ليلقي بنفسه بين ذراعيه وقد تاب عن خطاياه. في هذا الخط، رأى العديد من المفسّرين في هذه الشخصية صورة العشارين والخطأة التائبين. وهذا ما يجذبهم ليسوع، لأنّه لا ينهرهم، بل يقترب منهم ويأكل معهم ويحدّثهم عن "الفرح في السماء

بخاطئ واحد يتوب أكثر منه بتسعة وتسعين من الأبرار لا يحتاجون إلى التوبة" (لوقا ١٥: ٧). يا له من وحي! إنّ الله يفرح بواحد يعود إليه، واحد فقط، لأنّ كلّ شخص بالنسبة إلى الله يساوي العالم بأسره.

والآن، نحوّل نظرنا إلى المرأتين اللتين تكادان أن تكونا مختفيتين وغير مرئيتين. خلف الرجل الجالس، بعيدا نوعا ما، نرى امرأة تستند الى عامود البيت. إنّها واقفة بين الرجل الجالس والأب، تقريبا في المركز الهندسي للمشهد. إن رأسها مشع وهي تقف في الظلّ. وجهها يعبر عن الفرح المكبوت، عدم التصديق، الاندهاش، الاندماج. هل هي الأخت أم الأم؟ مهما يكن الأمر، هذا الشخص يوحي بما يقوله يسوع في المثل عن العيد والفرح والموسيقى والرقص (راجع لوقا ١٥: ٢٥). أخيرا، نلمح في الظلّ، منتصَفَ الظلام، امرأة أخرى يمكن أن نرى وجهها. هل هي أخت أخرى أم خادمة؟ مهما يكن الأمر، يمكننا أن نقرأ في موقفها نظرة خاطفة الى المشهد ومن الصعب أن نلمح مشاعرها: هل هي الفضولية، الخفاء، التعاطف، الاندهاش، المفاجأة، الفرح، الخوف، الرغبة في الاندماج؟

كما سبق واشرنا، يمكن أن نرى في المرأة الواقفة في الوسط ربّة البيت. مع أن مَثَل الإنجيل لا يذكرها صراحةً، فمن المُستغرب ألا تكون حاضرة في هذا المشهد الذي لم يكن منتظرًا، وبالتالي

كان الفرح به والمشاركة في هذا الفرح أكبر. وعليه، بقدر ما نصف الأب بـ"الأب الرحيم"، يمكن أن نطلق على الأم أيضا "الأم الرحيمة". وهي مختبئة وصامتة وتقف في الظلّ في الصفّ الثاني وتنظر، وقد امتلأت فرحا واندهاشًا. إنّ كل كياتها يطرب ابتهاجًا ويخفق قلبها بالحبّ الرحيم تجاه ابنها الذي لم يفارق قطّ قلبها.

إذا رفعنا الآن نظرنا من الأرض إلى السماء، يمكن أن يتوجّه فكرنا إلى مريم العذراء. إنّ الحسّ الإيمانيّ الذي اخترق التقليد المسيحي انتبه لهذا الجانب، إذ توجّه المسيحيون، منذ القدم، إلى مريم العذراء ودعوها "أمّ الرحمة". إنّ أقدم الصلوات المريميّة تبدأ هكذا: "السلام عليك، يا سلطانة، يا أم الرحمة، يا حلاوتنا ورجاءنا". مَن أكثر من مريم العذراء تألّم من أجل ابنها ومعه، وبالتالي، مَن أكثر منها يمكن أن يفهم أبناءها على الأرض وهم يتوسّلون رحمتها، كي تشفع لهم لدى الله؟ هل يستطيع الابن أن يرفض شيئًا لأمّه؟ لهذا السبب، تؤكّد الكنيسة أن مريم العذراء، التي انتقلت إلى السماء لتكون بجانب ابنها، "بشفاعتها المتّصلة لا تني تستمدّ لنا النعَم التي تضمن خلاصنا الأبديّ؛ وحبّها الأموميّ يجعلها عينًا ساهرة على اخوة ابنها الذين لم ينته شوطهم بعدُ، وإنّما يعانون وطأة المشاق والمَحن إلى أن يبلغوا الوطن السعيد" (المجمع الفاتيكاني الثاني، الكنيسة، ٦٢).

هنالك قاسم مشترك بين جميع هؤلاء الاشخاص الثانويين، وهو اللغز الذي يكتنف موقفهم، مما يعطي المجال لقراءات مختلفة. وهذا يعني انّ اللّوحة، شأنها شأن المثل الانجيلي ايضا، لها حدودها، بمعنى أنّها لا تعطي حلًّا سريعا وسهلا لجميع الاسئلة. إنّنا لا نرى مصالحة شاملة، قصّة ذات نهاية سعيدة للجميع. يبقى السؤال عن خاتمة الحوار بين الأب والابن الأكبر والسؤال حول وجود الشخص الجالس والمرأتين. إنّ أيّة مصالحة تنطوي على صراع داخلي وقرار حرّ في اتجاه الحبّ.

ماذا يمثّل الأشخاص الرئيسون؟

تمثّل لوحة رمبراندت المشهد الأساسي من المثل الذي رواه يسوع، والأشخاص المرسومون يصوّرون بأمانة الأشخاص المذكورين في المثل. ولكن يسوع، الذي يتكلم بأمثال، يريد أن يعلن انجيل الخلاص: أي هذا الخبر السار بأنّ الله يحبّنا دائمًا ويغفر لنا دائمًا، لأنّه بالذات أب. وعليه، فإنّ أشخاص المثل يكتسبون عندها طابعا وملامح جديدة وأبعادا شاملة. وفقط من ينتبه لكلمات يسوع (التي نقرأها ونسمعها ونرسمها) مدعوّ إلى أن يشعر أنّه معنيّ. من يظلّ في الخارج ولا يلتقط الرسالة يفقد فرصة مناسبة كي يمسّه الله. وهذا ما يدعونا إليه الله بالذات: "واليوم إذا سمعتم صوته" (مز ٩٥؛ إلى العبرانيين ٣: ٧. ١٥). اليوم، وليس غدا، الآن وليس في ما بعد.

الأب

إنّه الله، الله الآب، هو الشخص المركزي في هذا المثل. "تبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح، أبو الرأفة إله كلّ عزاء، فهو الذي يعزينا في كلّ شدائدنا" (٢ قورنتس ١: ٣-٤). إنّ خبرة بولس الشخصيّة هذه كانت ايضا خبرة رمبراندت. وهي

خبرة كلّ واحد منا. إنّ الله هو دائما الأول الذي يحبّنا أولا وآخرا (راجع ١يوحنا ٤: ١٩). لسنا نحن الذين اخترناه، بل هو الذي اختارنا. وهو الذي يبحث عنّا قبل أن نبحث عنه. وهو يحبّنا الى درجة أنّه أعطانا ابنه الوحيد وفيه أعطانا كلّ خير (راجع ١يوحنا ٤: ٨-١٠؛ افسس ١: ٣-٥). لنسمع مرة أخرى الرسول بولس يقول بتعابير نارية: "إنّ الذي لم يضنّ بابنه نفسه، بل أسلمه الى الموت من أجلنا جميعا، كيف لا يهب لنا معه كلّ شيء؟" (رومة ٨: ٣٢).

إنّ القوة الوحيدة التي يطلبها لنفسه هي قوة الحبّ. وهو لا يرغم الإبن الأصغر ولا الابن الأكبر، بل يتركهما كي يستعملا حريتيهما. إنّه يريد أن يكون الأبناء حقّا ابناءً، أي أحرارا بأن يحبّوا، أحرارا أن يختاروا. إنّه يعرف أنّ هذه الحرية يمكن أن تؤدّي بهم الى الانفصال، او التخلّي، او الاهانة، او الطرق الملتوية، او عدم الرضى، او التعاسة. ويعرف أيضا أنّ كلّ ذلك يمكن ان ينعكس على قلبه الأبوي، فهذا ألمه وحنانه. في عمق وجعه ببسب خطايا أبنائه، يتألم الأب من أجلهم. ويمدّ دائما يده ليشفي وذراعه ليستقبل من يعود الى البيت. إنّه يمنح الغفران والمصالحة والشفاء والسكينة والأمان والقوة. إنّه لا يكلّ بأن يكرّر للابن الأصغر العائد وهو ينظر إلى ابنه المصلوب: "أنت ابني الحبيب، الذي عنه رضيت" (مرقس ١: ١١).

هذا الحبّ تعبّر عنه لوحة رمبراندت عن طريق الوجه، وايضا عن طريق اليدين. إنّ هاتين اليدين، هما يدا أب وأمّ، الواحدة قويّة والاخرى رقيقة، تحمل رسالة حيّة. إنّها تذكّرنا بالكثير من كلمات الله ولفتاته في الكتاب المقدّس، خاصّة كما أوحى به في ملئه في يسوع. وهي تقول إنّ الله يحبّ البشر كأب وكأم، والذي هو أب وأمّ معا، لأنّه خلق الإنسان "على صورة الله خلقه، ذكرا وأنثى خلقهم" (تكوين ١: ٢٧). يقول الربّ: "أتنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى ولو نسيت النساء فأنا لا أنساك" (اشعيا ٤٩: ١٥). ويسوع عينه، الذي يوحي بحبّ الآب للبشر ويحمله، يستعمل صورة الدجاجة الأمّ ليعبّر عن حبة تجاه الشعب، هذا الحبّ الذي لم يجد جوابًا: "أورشليم، اورشليم، يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها، كم مرة أردت أن أجمع أبناءك، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها! فلم تريدوا" (متى ٢٣: ٣٧). إنّها قصّة الابن الذي ترك البيت الوالدي، إنّها قصّة كلّ واحد منا. ولكنّ الله يستقبلنا دائما وانحناؤه على الابن الذي يعود يمثّل أعمق معاني الحياة. إنّ حضن الآب (راجع يوحنا ١: ١٨) هو ينبوع الحياة والحياة الجديدة.

إنّ الآب يحبّ الجميع ولا يميّز بين الأشخاص، كما لا يميّز بين الأخيار والأشرار. فهو يعانق الابن الأصغر، ويحاور

الابن الأكبر حوار الحبّ، اذ يخرج اليه ولا يضغط على حريته: "يا بُنيّ، أنت معي دائما أبدا، وجميع ما هو لي فهو لك" (لوقا ١٥: ٣١). إنّ الاحتفال بالابن الذي عاد لا يكتمل إلا إذا اشترك فيه الابن الأكبر. إنّ قلبه يريد ان يجلس الاثنان معا على المائدة الواحدة. إنّ الآب لا يقوم بمواجهة بين الابنين، لانه يحبهما مع الاحترام لحرية كلّ واحد منهما. بالنسبة إلى الله، إنّ جميع أبنائه محبوبون، بحبّ خاصّ وفريد وشخصيّ. وهذا هو التعليم عينه الذي ينقله الينا يسوع في مثل العملة واجرتهم (متى ٢٠: ١-١٥). فمن يستطيع أن يقول إنّه غير راضٍ بمكافأته فقط لأنّ صاحب الحقل يظهر سخاءه وصلاحه للجميع، لأنّ حبه الرحيم يتجاوز العدالة؟ عندما نقوم نحن بالمقارنات او نطالب بالامتيازات والأفضلية، او نفتخر باستحقاقاتنا، او نتذمّر من نجاح اصدقائنا ومنافسينا، يجب ان نسمع جيدا ما يقوله الرب: "أم عينك حسود لأنّي كريم؟" (متى ٢٠: ١٥).

إنّ الأب في المثل يدعو الى عيد كبير لابنه الذي عاد الى البيت. ولا يُنقص شيئا لهذا العيد: الثياب، الخاتم، الوليمة، الموسيقى، الرقص. هو ذاته يرتدي ثياب العيد، ويزيّن البيت، ويعد المنصّة للابن. يتخطّى مقاومة وتأنيب الأبن الاكبر: "قد وجب أن نتنعّم ونفرح" (لوقا ١٥: ٣٢). إنّه أمر، ولكنّه ليس أمر سلطة، بل أمر الحبّ. الحبّ لا يعرف الحدود، الحبّ ينفجر

في الفرح والعيد. والفرح ليس فرحا اذا لم يشترك فيه جميع الحاضرين. إنّ غياب واحد يضفي جوّا من الاضطراب على العيد.

إنّ الله يحبّنا ويريد فرحنا. إنّه ينظم وليمة لجميع أبنائه ليحتفل بعرس ابنه (راجع متى ٢٢: ١-١٤؛ لوقا ١٤: ١٦-٢٤). الجميع مدعوون ولا يستثني أحدًا: "أدعوا الى العرس كلّ مَن تجدونه" (متى ٢٢: ٩). إنّه اله الحبّ، اله الفرح. إنّ جميع امثال الرحمة التي نجدها مع مثل الابن الضالّ (الخروف الضال، الدرهم المفقود) تنتهي كلّها بالفرح. إنّها تعبّر عن فرح الله، ينبوع كلّ فرح. إنّ فرح الراعي بالخروف الذي وجده هو صورة لفرح الله بالابن العائد: "هكذا يكون الفرح في السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر منه بتسعة وتسعين من الأبرار" (لوقا ١٥: ٧). وفرح ربّة البيت للدرهم الذي عادت ووجدته هو فرح ملائكة الله (راجع لوقا ١٥: ١٠). إنّه فرح يسري كالعدوى في بيت الله: فرح الملائكة، والقديسين، والبشر، والسماء والارض. إنّه الفرح بواحد على مئة، لا بل هو فرح واحد على ملايين. نعم، إنّ كلّ انسان هو ابن الله وكلّ انسان له قيمة لامتناهية، وانسان واحد يساوي الكون باكمله. لا أحد يُعتَبر رقمًا أمام الله، لا أحد هو نموذج في قالب. كلّهم نسخة أصلية، وكلّهم أبناء وحيدون ومحبوبون. هذا مستحيل؟ "هذا شيء

يعجز الناس ولا يعجز الله، فإنّ الله على كلّ شيء قدير" (مرقس ١٠: ٢٧).

إنّ هذا المستحيل الذي يصبح ممكنا يفسّر أيضا كيف يمكن أن يتواجد في الله وفي ابن الله الفرح والحزن. إنّ ابن الله هو الملك الممجد والعبد المتألّم، وهو العريس الفَرِح ورجل الاوجاع. إنّه يتألّم عندما يرى أنّ حبّ الله لا يجد صدى ولا استجابة ويُقابل بالرفض. هل من الممكن الفرح عندما يغيب أحد الاخوة عن المائدة او يحتفظ بالضغينة حيال أخيه؟ يفرح الربّ عندما يصرخ مريض الجسد او الروح قائلا: "رحماك يا يسوع ابن داود!" (لوقا ١٨: ٣٨). ويفرح عندما ترتمي امرأة خاطئة تحت قدميه وهي تبكي لتطلب منه الرحمة والغفران (راجع لوقا ٦: ٣٦-٣٨). إنّ فرح الآب هو "أن يخلص جميع الناس" (١طيموتاوس ٢: ٤). لقد سبق وأن أعلن النبي حزقيال في العهد القديم هذا التعبير الجميل للربّ الإله: "ألعلّ هواي في موت الشرير؟ يقول السيّد الربّ. أليس في أن يتوب عن طرقه فيحيا" (حزقيال ١٨: ٢٣). وهذا ما يجد صداه في كلمة القديس بطرس في العهد الجديد حيث يقول: "إنّ الرب... يصبر عليكم لأنّه لا يشاء أن يهلك أحد، بل أن يبلغ جميع الناس إلى التوبة" (٢ بطرس ٣: ٩).

الابن

ألعلّه من الجرأة أن نرى يسوع في الابن الأصغر؟ كيف يمكن أن نرى البارّ في الخاطئ، ولو تاب هذا الخاطئ؟ ومع ذلك، فإنّنا نعرف أنّ يسوع حمل خطايانا جميعا (راجع اشعيا ٥٣: ١٢) وأنّه "حمل خطايانا في جسده على الخشبة" (١بطرس ٢: ٢٤). ويفسّر القديس بولس حالة الابن البريء والمتألم بتعابير دراميّة: "ذاك الذي لم يعرف الخطيئة جعله الله خطيئة من أجلنا كي نصير فيه برّ الله" (٢قورنتس ٥: ٢١). لهذا، الابن الأزلي "يخرج من الآب" (راجع يوحنا ٨: ٤٢)، و"تجرّد من ذاته وصار على مثال البشر" (فيلبي ٢: ٦-٧)، لكي يصبح رفيق درب البشر على الأرض، ويحمل في ذاته خطاياهم ويصبح الابن الأصغر. إنّه يترك بيت الآب في السماء، ويأتي الى بلد غريب وينصب خيمه بين البشر (راجع يوحنا ١: ١٤). يعطي كلّ ما لديه، ويتعرض للتخلّي والاحتقار وفي آخر الأمر، في درب الصليب، يعود الى بيت الآب. إنّه حقا الذي "افتقر لأجلكم وهو الغني لتغتنوا بفقره" (٢قورنتس ٨: ٩). قد أراد يسوع أن يصبح الابن الأصغر، لكي نصبح نحن الأبناء المحبوبين. ولدى عودته الى الآب، فانه يحمل معه جمهورا من الاخوة: "صعد الى العلى فأخذ أسرى وأعطى الناس العطايا" (افسس ٤: ٧)، ويقود معه كلّ الأبناء الذين ضلّوا وعادوا. وإلى وليمته السماوية، يدعو

ايضا "الفقراء والكسحان والعميان والعرجان" (لوقا ١٤: ٢١)، ويلبسهم الحلّة البيضاء، وهي حلّة الحبّ الذي يغفر.

وهل يسوع هو الابن الأكبر؟ بشكل من الاشكال إنّه يصبح شبيها به أيضا، اذ يحمل خطيئته. لأنّه يريد أن يخلصه هو ايضا. هنالك تماثل ملفت بين أقوال الأب لابنه الأكبر وكلمات يسوع لأبيه السماوي. إنّ الأب، في المثل، يقول: "يا بنيّ، أنت معي دائما أبدا، وجميع ما هو لي فهو لك" (لوقا ١٥: ٢١). ويسوع بدوره يقول عن الآب: "إنّ الذي أرسلني هو معي. لم يتركني وحدي لأني أعمل دائما ابدا ما يرضيه" (يوحنا ٨: ٢٩). وايضا: "جميع ما هو للآب هو لي" (يوحنا ١٦: ١٥). بالإضافة إلى ذلك، وفي ختام حوار يسوع مع نيقودمس نقرأ: "إنّ الآب يحبّ الإبن فجعل كلّ شيء في يده" (يوحنا ٣: ٣٥). إنّ يسوع، المُرسل من قبل حبّ الآب، يدخل في حوار مع هذا الابن الأكبر، لأنّه يريد مساعدته للخروج من أنانيته وضغينته. يريد مساعدته ليقرّر بحرّيته الدخول في شركة مع اخيه الأصغر، ومع كلّ الاخوة والآب. جميعهم مدعوون إلى الدخول في بيت الآب والجلوس الى مائدته (راجع متى ٨: ١١)، لا بل "يجلسهم للطعام، ويدور عليهم يخدمهم" (لوقا ١٢: ٣٧).

مَن أنا بين هؤلاء الأشخاص؟

أواصلُ التأمّل في لوحة رمبراندت، في ضوء مَثَل يسوع. أفهمُ أنّها أيضا قصّتي، القصّة التي يريد الله أن يرويها لي، والقصّة التي أريد أنا أن أرويها لله، القصّة التي أريد انا أن أرويها لإخوتي وأخواتي. انها قصّة رمبراندت، قصّة شعب الله، قصّة البشر. إنّها قصّة الله! وهكذا ينشأ حوار بيني وبين الله. أشعر أنّ الخطيئة والغفران يتعانقان، وأنّ الموت والحياة يتلاقيان حيث نرى أنّ الحبّ يحرق الخطيئة. أرى أنّ السماء والأرض، الزمن والأبدية، البشريّ والالهيّ يتلاقيان ويصبحان شيئًا واحدًا. لا أستطيع أن أظلّ غريباومتفرِّجا. يجب أن أدخل أنا أيضا في المشهد. أي جهة أختار؟

بشكل عفويّ أختار الابن الأصغر: إنّه يشبهني. كم من مرّة تركت بيت الآب بحثا عن مغامرات وخبرات جديدة. وما يجذبني هو دائما نفسه: المال، السلطة، اللذة، الشهوة، الاستقلال، الكبرياء، إشباع الرغبات. إنّها تجارب اختبرها يسوع ذاته أيضا (راجع متى ٤: ١-١١؛ لوقا ٤: ١-١٣). والقديس يوحنا يلخّصها بقوله إنّها "شهوة الجسد وشهوة العين وكبرياء الغنى" (١يوحنا ٢: ١٦) في كلّ مرة أبحث فيها عن الحبّ خارجَ

بيت الآب، فإنّي أفتح جرحًا في قلبه. إنّ جميع أنواع الهروب من البيت، الصغيرة والكبيرة، هي دائما إهانة لأبوّته ولحبّه. ولكن كم من مرّة اختبرتُ فرح عناق الآب الرحيم والمبارِك. كم من مرّة شعرت بالفشل والخذلان وسوء الفهم وعدم الحبّ. يا له من فرح أن نشعر أنّ الله يعزينا، ويحبّنا، ويغفر لنا، ويساعدنا، لأنّه "أبو الرافة وإله كلّ تعزية" (٢ قورنتس ١: ٣). إنّ يسوع هو حبّ الآب الذي صار بشرا لأجلنا، لأجلي، وأستطيع القول مع القديس بولس: "أحبّني وجاد بنفسه من أجلي" (غلاطية ٢: ٢٠).

أمّا بالنسبة إلى الإبن الأكبر، يجب القول بصراحة إنّ موقفه لا يعجبني. مع الاعتراف بأمانته لبيته وانكبابه على العمل، فإنّي أجده أنانيّا، حسودا، مستعدا للحكم، واثقًا من نفسه ومن برارته. أليس صحيحا أنّه هو ايضا ابتعد عن بيت الآب؟ ولكن، اذا تأملتُ في نفسي جيدا، أنا الذي أنتقده، أجد أنّني أتصرف تماما مثلَه وأسوأ منه. ألاحظ أنّي قريب منه أكثر مما انا قريب من الابن الاصغر. فإنني مستعد دائما للتذمّر، للنقد، للحكم، لادانة الآخرين. لا أتنازل عن وجهات نظري، لا أُبدي تفهُّمًا حيال من يُخطئ، لا اشارك أفراح الآخرين. أخاف من عدم التقدير، وأشمئز عندما أرى أن لغيري فضلًا عليّ. إنني حسود، وأشعر بالاحباط عندما لا يعترف احد

بشخصيتي. ربما من الأسهل أن يُشفى المرء من مرض الابن الأصغر من أن يشفى من مرض الابن الأكبر. فهذا يعاني بمرض في الجسد، بينما يعاني الآخر من مرض في الروح. وكلاهما ضالّان، وكلاهما بحاجة الى خلاص. وأنّي أجد نفسي، في بعض المرّات، في الواحد، ومرّات أخرى في الآخر، ومرّات في كليهما معا.

أمّا بالنسبة إلى الأب، فلا تأتي حتى على بالي أنّني يمكن أن أقوم بدوره. فالأب عظيم، فوق كلّ شيء، وينير كلّ شيء، وهو مركز كلّ شيء: يبدو من المستحيل ان نتشبّه به. ومع ذلك، عندما أسمع يسوع يقول: "كونوا أنتم كاملين ، كما أنّ اباكم السماوي كامل" (متى ٥: ٤٨)، ويقول ايضا: "كونوا رحماء كما أنّ اباكم السماوي رحيم" (لوقا ٦: ٣٦)، أشعر بقوة خاصة. فكلامه موجّه إلى بشر لا إلى ملائكة، وموجّه لبشر ضعفاء وخطأة مثلي، لا لأنبياء وقديسين. عندها أفهم أنّ يسوع يدعوني إلى أن أتشبّه بالآب. دعوتي هي أن أصبح الآب، أبًا رحيما مثله. إنّني دائما ابن، ولكنّي مدعوّ إلى أن اشارك الآب في حنانه. وأيضا يسوع هو الصورة الكاملة لحنان الآب. الله، الآب الوحيد (راجع متى ٢٣: ٩) يدعوني الى أن أتشبّه به بصفته أب، أن أعيش في الحبّ بقوة روحه، وذلك لانّ منه "تستمد كلّ أبوّة في السماء وفي الارض" (أفسس ٣: ١٥)،

ويدعوني إلى أن أكون شريكا في ابوّته وشاهدا لها. فقط عندما نعيش كأب يحبّ، يمكن أن نعكس شعاعا صغيرا من حبّ الله اللامحدود.

في عالم فقدت فيه صورة الأب أهميتها ومصداقيتها في الغرب، في الوقت الذي يحتفظ فيه الشرق بصورة الأب بشكلها السلطوي، في "مجتمع بغير آباء" (كما قال أحدهم)، من المهم ومن الضروري أن نشهد للدور الحقيقي للأب بحسب الانجيل. إنّ مَثل الابنين الضالّين والأب المحبّ يجب ان تثير فيّ سؤالا مزدوجا: "كيف يمكن أن أصبح ابنا؟ كيف يمكن أن أصبح أبًا؟". ان الخبرة التي عاشها القديس بولس جعلته يقول باندهاش: "وهذا الروح نفسه يشهد مع أرواحنا بأنّنا أبناء الله. فإذا كنّا أبناء الله، فنحن ورثة: ورثة الله وشركاء المسيح في الميراث، لأنّنا، إذا شاركناه في آلامه، نشاركه في مجده أيضا" (رومة ٨: ١٦-١٧). نحن أبناء، ونحن ورثة، فنشترك في عطايا البيت التي تصبح لنا. كم هو جميل ما يقوله القديس بولس الى أهل قورنتس ولنا: "فكلّ شيء لكم، أبولس كان أم ابلس أم صخرا أم العالم أم الحياة أم الموت أم الحاضر أم المستقبل.كلّ شيء لكم، وأنتم للمسيح، والمسيح لله" (١قورنتس ٣: ٢١-٢٢).

خاتمة

في هذه السنة الاستثنائية المكرَّسة للرحمة الإلهية، نحن المسيحيين جميعا مدعوون، في أي موقع كنّا في الكنيسة ومهما كانت رسالتنا فيها، إلى التزام مزدوج: الأول هو المثول أمام "الله الواسع الرحمة" (أفسس ٢: ٤)، والتشبّه بالآب السماوي "الآب السماوي الرحيم" (لوقا ٦: ٣). إنّ العيش مع الآب والعودة الى بيته دعوة دائمة تملأنا حبّا وحنانا مثله. إنّنا مدعوون إلى أن نتحوّل الى صورته. إنّنا مدعوون إلى أن نلبس المسيح، الابن الحبيب. إنّه عاش بشكل كامل التطويبة التي أعلنها على الجبل: "طوبى للرحماء لأنّهم يُرحمون" (متى ٥: ٧). طوبى لمن يعرفون كيف يحبّون، لأنّ الآب يحبّهم.

ولهذا السبب، فإن مَثل الابن الضالّ، كما هو الحال مع جميع أمثال يسوع، "لن يزول أبدا" (متى ٢٤: ٣٥). وحقٌّ ما قيل إنّ "هذا المثل وحدَه قد مسّ قلوبًا أكثر من كلّ خُطب الوعّاظ كلّهم معًا".

في هذا المثل، كشف لنا يسوع وجه الآب الرحيم. وهو ذاته الصورة المرئية للآب الرحيم، "صورة الله الذي لا يُرى"، كما يقول القديس بولس في رسالته إلى أهل قولسي (١: ١٥)،

وكما يقول القديس يوحنا في ختام فاتحة إنجيله الرابع: "الله ما رآه أحد قطّ. الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو الذي أخبر عنه" (١: ١٨). في هذه السنة، نتأمل في يسوع صورة الآب الرحيم، لكي ننقل ملامحه ونجعلها ملامح هويتنا، في كلّ مرافق حياتنا الخاصة والعامّة، الفردية والعائلية والاجتماعية. وكعلامة للالتزام، في هذه السنة المقدّسة، بهذه الكلمة القوية والسامية ليسوع: "كونوا رحماء كما أنّ اباكم السماويّ رحيم" (لوقا ٦: ٣٦)، يشير البابا فرنسيس إلى أعمال الرحمة الجسدية، ويعدّدها واحدةً واحدة: إطعام الجياع، كسو العراة، استقبال الغرباء، مساعدة المرضى، زيارة السجناء، دفن الموتى؛ وأيضا إلى أعمال الرحمة الروحية: تعليم الجهّال، نصح الخطأة، تعزية المحزونين، مغفرة الإساءات، احتمال المُنكّدين بصبر، الصلاة من أجل الأحياء والأموات (راجع رقم ١٥).

مع جميع هذه الأعمال، قد نجد أنفسنا أمام اكتشاف جميل، وهو أن جميع هذه الأعمال نجدها في مثل الابن الضالّ. في غمرة بؤسه، ألم يكن الابن الضالّ جائعًا، وعطشًا، وعاريًا، وغريبًا، ومريضًا، وسجين ذاته، وميتا روحيّا؟ هذا ما يقوله الأب نفسه: "كان ميّتًا... كان ضائعًا..." (لوقا ١٥: ٥٢). أمّا الآن، فقد عاد إلى الحياة ووجد (راجع لوقا ١٥: ٤٢). أليس بحاجة إلى نصح، وتعليم، وتحذير، وتعزية، ومغفرة، وتحمّل، ورحمة؟ نحن ايضا، بصفتنا بناء ضالين عادوا إلى البيت الأبوي، فعانقهم الآب الرحيم، فيجب أن نكون آباء رحيمين. إن القديس يوحنا لا يكفّ عن نصحنا، كلّ يوم من أيام السنة المقدّسة، قائلا: "إذا كان الله قد أحبّنا هذا الحبّ فعلينا نحن أيضا أن يحبّ بعضنا بعضًا" (١ يوحنا ٤: ١١).

صلاة الابن الضالّ
بعد العرس في البيت الأبوي

شكرًا لكَ، يا أبتِ،
لأنّك رأيتني،
لأنّك أسرعتَ إليّ،
لأنّك قبّلتني،
لأنك أدخلتَني بيتك
العامر بالأفراح،
لأنك أعدتَ إليّ
براءتي الأولى.

لقد قصدتُك سيّدًا،
فوجدتُك أبًا.
قصدتُك خالقًا،
فوجدتُك مخلّصًا.
قصدتك ديّانًا،
فوجدتُك حبًّا.

قصدتُك عادلا،
فوجدتُك رحيمًا.

جئتُك عبدًا،
وقبلتَني ابنًا.
جئتك أجيرًا،
وقبلتني وارثًا،
جئتك مستعطيًا،
وقبلتني مُرحبًا.
جئتك حزينًا،
وقبلتني فَرِحًا.
جئتك خاطئًا،
وقبلتني تائبًا.
جئتك ذليلًا،
فأعدتَ لي كرامتي.

جئتك منكوس الرأس،
فرفعتَ رأسي.
جئتك بغير اسم،
فأعدت لي اسمي.
جئتك بغير هوية،
فجعلتَ من صدرك
هويتي.
جئتك بائسًا،
فأغنيتني.
جئتك غريبًا،
فجعلتني من أهل البيت.
جئتك عاريًا،
فألبستني حلّة العرس.
جئتك سجينًا،
فحرّرتني.

جئتك مريضًا،
فشفيتني.
جئتك يائسًا،
فأعدتَ لي بهجة الأمل.
جئتك ميتًا،
فأعدتَ لي طعم الحياة.

شكرًا، لك، يا أبت.
شكرا لك، يا أبتِ،
لأنّك أبي،
ولأنّي ابنك،
أعيش فيك،
معك،
من أجلك.
آمين.

الفهرس

مدخل	٣
مقدمة: لِنَعُد معًا إلى بيت الآب!	٨
قصّة لوحة شهيرة	١٠
الأشخاص وتفاصيل ملامحهم	١٤
ماذا يمثّل الأشخاص الرئيسون؟	٣١
مَن أنا بين هؤلاء الأشخاص؟	٣٩
خاتمة	٤٣
صلاة الابن الضالّ	٤٦